

حديث الحب والدموع في الشعر الأندلسي (عصر الطوائف)

أ.م. د. بشرى عبد عطية
كلية الزراعة
جامعة بغداد

(فلاصة البحث)

تناول البحث دراسة بواعث الدموع في شعر الحب في الأندلسي، وقد عني بتحليل النصوص الشعرية التي وظف فيها الشاعر لفظة الدموع وما ينوب عنها من بكاء وعبرة كما اهتم البحث فضلاً عن دراسة توظيف هذه المفردة بالصورة الشعرية التي اتكأت على الدموع في رسم مشاعر الشاعر المحب، وتجسيد انفعالاته وحالته الشعورية، والوقوف على الأساليب التعبيرية التي برزت في هذا الموضوع وقد توصل البحث إلى نتائج عدة كان من أبرزها:

- إبداع الشاعر في توظيف هذه المفردة في شعر الحب لتعبر عن مكونات نفسه من المشاعر الصادقة والأحاسيس المرهفة التي ابتعثها الحب في نفسه بدءاً من فراق أحبته وشكوى صدود المحبوب ومن ثم استعطاف المحبوب بها.
- برزت أساليب تعبيرية اعتمدها الشاعر لتعبر عن حالته النفسية وكان من أهمها الاستفهام، والتكرار، والحوار فضلاً عن تشخيص الدمع.
- شيوع ظاهرة الكسر في تلك الأشعار التي عبرت عن دموع الشاعر المحب.

المقدمة

لم يمر بالأدب العربي عصر من العصور لم يكن الحب فيه ينبوعاً من ينابيعه بدءاً من الشعر الجاهلي بصوره التقليدية، ولغته المتفدنة وتشبيحاته فقد كانت كل قصيدة من قصائده تقريباً تفتتح باسم حبيبة يتغنى باسمها أو وصف ديارها أو الوقوف لوداعها أو بكاء لفراقها. (1)

وقد أمتاز المجتمع الأندلسي بطبيعته الاجتماعية المفتحة على ثقافات، وأعراق وأجناس عدة، وبجمال بيئته ما وفرَّ جواً من رغد العيش للمحبين حين أسبغ عليهم نعمة التمتع بلحظات الأنس مع أحبّتهم، واللذة بقربهم فقد عرف الأندلسيون الحب وعاشوه بوجوده اختلّفت باختلاف الظروف والمناسبات؛ فتارة نجد اللهو والعبث، وتارة نجد العفة في الحب^(٢)، إلا أن واقع الحال لا يضم بين طياته شوق المحبين ولذة اللقاء فحسب، بل يحمل في جانبه الآخر حقيقة الحياة باستحالة الوصل، واستبدال الأحوال برحيل الأحبة، وتفرق شمل العشاق ووسطوة التجافي فشبح الفراق لا بد أن يحلّ بينهم لأسباب معروفة لهم حيناً، ومجهولة أحياناً آخر من هنا برزت الدموع في حديث الشاعر الذي عُرف برقة الإحساس وعدم التخرج في التعبير عن مشاعره عند فراق أحبّته إذ عمد إلى البكاء وإراقة دمع العين وسيلة لإظهار تأثره، والكشف عن خبايا روحه فكما أن العين لا تكذب فإن الدموع لا تنافق فالبكاء تعبير إنساني صادق يلجأ إليه الشاعر لتأثيره وقوته في التعبير عن المعاناة الإنسانية التي تختلج في نفسه وحيداً بعيداً عن أحب، عندها يثبت البكاء وجوده كظاهرة إنسانية مثقلة بشحنات القلق والتوتر والإحباط ليعكس الواقع النفسي الحزين، ويمنح لغته ملامح التعبير الإنساني محولاً إياها إلى أفسى اللغات وقعاً وتأثيراً.^(٣)

وعلى الرغم من الانحلال السياسي الذي عاشته الأندلس في عصر الطوائف إلا أنه شهد نهضة ثقافية متميزة، وذلك بفضل تنافس الملوك والأمراء في اجتذاب فحول الشعراء والكتاب والعلماء إلى حواضرهم التي حولوها على حد قول المستشرق الإسباني غرسية غومس ((إلى بغدادات صغيرة))^(٤)، فهؤلاء الملوك والأمراء كانوا يتنافسون في فخامة الشأن حتى عرف عهدهم بالرخاء، وغدت بلاطاتهم أماكن لاجتماعات فكرية يتحلق فيها الشعراء والأدباء والعلماء، وفي هذا الجو من الرخاء الفكري والاجتماعي أبدع الشاعر الأندلسي في معايشة واقعه حباً وحرماً ومن التفاتاته الجميلة التي استوقفنا اهتمامه بتوظيف الدموع في حديث، وإن كان ذكر الدمع في شعر الحب يرد في مختلف العصور إلا أننا لاحظنا تميز شعراء عصر الطوائف، لذلك فأنا سنقف عند

توظيف الشاعر للدموع في حديث الحب، ونرصده توجّهه نحو توظيفها توظيفاً فنياً وموضوعياً فضلاً عن دورها في الكشف عن مشاعر الحب وعدها وسيلة يصل من خلالها إلى استثارة العواطف، وتحفيزها ومن ثم الفوز باستعطاف المحبوب ونيل المراد، وذلك من خلال رصد البواعث التي صنفنا على وفق أهميتها في حياة الشاعر وحديثه عنها فضلاً عن إبراز السمات الفنية التي تميزت بها النصوص، وتمثلت البواعث في ما يأتي:

أولاً: وداع الأحبة:

من أولى أسباب البكاء، وأشد موجبات المدامع وداع الأحبة فموقف الوداع من ((المواقف الصعبة التي تفتضح فيها عزيمة كل ماضي العزائم، وتذهب قوة كل ذي بصيرة، وتسكب عين كل جمود))^(٥)، ومن العشاق من يبكي لتلمس الأخبار أو عند ظهور المعالم ومطالعة الرسوم؛ إلا أن أكثرهم حرقاً ولوعة من تفيض دموعه عند موقف الفراق^(٦)، فهذا الشاعر ابن حمديس يصور موقف وداع أحبته من بدايته بكل ما احتوى هذا الموقف المؤلم من تفاصيل وأحداث كان حضور الدمع فيه ضرورة موضوعية، ولازمة فنية فجعل حديث الحب مشوباً بالدموع مصوراً ألم موقف الوداع وما يوقد في الأضلع من حزن كأنها نيران في الأضلع، فيقول:

وقد همّ بالتوديع كلّ مودع
فأبكت لها عيني غزال مروع
من الغيد شهباً في غمامة برقع
لعيني بها عن وجد قلب مفعج
يُصافحه من خدها درُ أدمع
عليّ وما لي من معين فكن معي
وأمواهِ أجفاني ونيرانِ أضلعي^(٧)

ولما رأَت طَيرَ الفراقِ نواعباً
شكت ما شكَا المحزون من عزيمةِ النوى
ولم أرَ في خدِّ يُزَرَّرُ قبلها
وقد سَفرَت عن صفرةِ عبرِ الأسي
واقبلِ درُ النحرِ فوق تريبها
فيارب أن البينَ أضحتْ صروفه
على قُربِ عذالي وبُعدِ حبابي

صور الشاعر موقف فراق الأحبة مشخصاً الدمع فيه بدور بارز فهو لم يكتفِ بذلك التشبيه المبتكر للدموع بالشهب في لمعانها، ووهجها وسرعتها وقد تجاوز لمعانها غمامة برقع المحبوبة، لكنه برع حين أضاف على الدمع سمة التشخيص فهو درُّ أقبل من عينها ليصافح درَّ نحرها، ويقابل دموعه المتدفقة كالمياه وهو وصف مؤثر ومعبر في رسم صورة الموقف وعلى الرغم من إيجازه، فإن اتكائه على وصف دموع محبوبته ومن ثم الحديث عن دموعه أثرى النص وهياً المتلقي للتعايش معه، فأثبت بذلك أن اللفظ موضوع بإزاء المعنى فالشاعر تعامل مع مفردة الدمع ليس بوصفها لفظة معجمية تعبر عن مشاعر إنسانية فحسب، لكنه تعامل مع تراكيب وصور وظفت فيها هذه اللفظة فأكسبتها معاني جديدة، وخرجت بصور مبتكرة لطيفة لم تكن متوافرة لها من قبل وذلك ما يخرج التجربة الشعورية إلى دائرة الوجود إذ ((لا وجود لمضمون عاطفي أو فكري إلا من خلال لغة تعبير عنه..))^(٨)، وبلغة مفعمة بالحركة والتوتر وبحزن يحتوي مفرداتها صور المعتمد بن عباد موقف وداع أحبته من زوجة وابناء وأحبه بقوله:

ولما التقينا للوداع غديَّةً
وقربت الجرد العتاق، وصفقت
وقد خفقت في ساحة القصر رايات
طبول، ولاحت للفراق علامات
لجري الدموع الحمر منها جراحات
فكيف وقد طالت عليها زيادات^(٩)
وكنا نرجى الأوب بعد ثلاثة

نلاحظ أن الشاعر أدرك ضرورة حضور البكاء ومصاحبة الدمع له في هذا الموقف كون الدمع هو مصاحبة وجدانية، واستجابة انفعالية للتوتر والحزن، فاللقاء تحقق للفراق، وقرب الجرد خُفَّ بعلامات الوداع ما جعل القلوب تخفق كخفق الرايات يزيد من اضطرابها وتوترها صدى الطبول عندئذ أثبت البكاء فاعليته ولزوميته في الصورة ومنسجما معها تحول الدمع إلى اللون الأحمر كأنه يسيل من جراح لا من عيون، والأبيات بما ترسمه من

صورة بصرية وسمعية جاءت واقعية صادقة في التعبير عن خوالج النفس والأمها عند الوداع.

ومن الشعراء من جعل احمرار خد محبوبته نتيجة طبيعية لحرارة الدموع المنهمرة عند الوداع كما أن اسوداد شعر صدغيها من آثاره، وهو بعنايته بتوظيف اللون في تصويره، ودقة تشبيهه يبرز دور اللون في إثراء الصورة الشعرية من جهة وقيمته لدى الشاعر الأندلسي من جهة أخرى، كما انه في الوقت نفسه يجعل من صورة دمع محبوبته عند الوداع انعكاساً وتجسيداً لعبوته التي أضرمتها نار النوى، ويصمت عن وصف دموعه تاركاً لنا ميدان الخيال والإحساس ليبقى تساؤلنا؛ إن كانت تلك دموع محبوبته فكيف حال دموعه هو، يقول ابن خفاجة:

رُبَّ عُرَّةٍ عَبْرَى قَدْ شَرَقَتْ بِهَا فِي مَوْقِفٍ لِلنَّوَى اضْرَمَتْهُ حُرْقًا
تَخَالَ مَا احْمَرَ مِنْ خَدَّيْهِ مُلْتَهَبًا بِهَا، وَمَا اسْوَدَّ مِنْ صُدْغِيهِ مُحْتَرِقًا^(١٠)

ويطالعنا الرحيل الذي يضع الشاعر وجهاً لوجه أمام الحقيقة المرة والتي يقف عاجزاً ليس فقط عن تغييرها بل حتى عن تقبلها فيجد ظلم الفراق ومرارته طريقه إلى قلبه مع يأس وحزن دائمين مبعثه الفراق؛ وبهذا لا يجد أمامه إلا الدموع المنهمرة وسيلة للتعبير عن ذلك الهم والحزن، ويتجلى ذلك في قول ابن زيدون:

بُنْتُمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَتْ مَاقِينَا
نَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَانِرْنَا يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا^(١١)

ويحول حزن الشاعر لفراق الحبيبة، واليأس من اللقاء الحياة إلى ألم دائم وإحساس بنار الحب والشوق تتأجج في قلبه لتحرق فؤاده وتتعاظم معاناته حدّ التبرم من الحياة، ومن حالة الحزن المتجدد في كل حين ولكون الشاعر العربي نمطاً انفعالياً تهزه المواقف وتؤثر فيه الأحداث والأقوال^(١٢) فقد كان الشعر ولا زال النبض الموحى لحياة الإنسان العربي والمعبر عن الحالة النفسية،

يكشف عن مكونات نفسه مستعيناً بكل ما يوصل إحساسه إلى المتلقي؛ من هنا كانت دموع ابن السيد البطليوسي تشكو الفراق تارة، وتعلن عن مكون نفسه من الضعف لتستعطف المحبوب تارة أخرى كما عمد الشاعر إلى دفع المتلقي لمشاركته إحساس الفراق ولوعته من خلال توظيف الحوار الذي أضفى على النص بعداً تأثيرياً أشد أسراً لمشاعر المتلقي، فيقول:

مَرَّتْ مُزْنَ عَيْنِهِ عِدَاةَ تَحْمَلُوا	عواصف ريح الشوق حتى تصبياً
دُمُوعٌ هَتَكَنَ السَّتْرَ عَنْ مَضْمَرِ الْجَوَى	وأبدین من سرّ الهوى ما تغيباً
خَلِيلِي مَا لِي كَلِمَا لَاحَ بَارِقٌ	تَذَكَرْتُ بَرَقاً بِالْعَقِيقِ وَزَيْنَبَا
أُوْنَسُ بِالنَّائِنِ نَوْماً مُشْرَداً	وأطمع بالثاوين قلباً مُعَدَّبَا
وَمَنْ لِي بَرْدَ الْخَلِّ إِذْ جَدَّتِ النَّوَى	به وبوصل الحبل أن يتقضبا
أَفِي كُلِّ حِينٍ أَمْتَرِي عَرَبَ مُقْلَةٍ	أبي الوخذ إلا أن تجود فتغربا*
ولولا التهاب الشوق بين جوانحي	لأمرع خدي بالدموع وأعشبا ^(١٣)

يُظهر حديث الشاعر الدور الذي أداه الدمع في رسم صورة الحزن التي مثلت إحساس الشاعر بالضعف لرحيل أحبته عنه فلجأ إلى دموعه التي هتكت سرّ هواه، وأفشت مضمير جواه ليحملها مشاعره ويكشف بمقدرته قيمتها التعبيرية والجمالية من دون أن يغفل إسباغ الصبغة الأندلسية على تعبيره بتوظيف الطبيعة في سائر الأغراض الشعرية فتعايير (مزن عينيه، وعواصف ريح الشوق، وأمرع خدي بالدموع وأعشبا) أظهرت أن بعض الألفاظ تقود إلى معاني تحرك الوجدان ومنها الدموع هنا التي منحت النص وأسلوب الشاعر في القص تأثيراً أقوى في نفس المتلقي وأبرزت مقدرة الشاعر في استثماره مفردة الدمع والإبداع من خلالها في تصوير معاناته.

وغالبا ما يكون الدمع ممزوجاً بتلك المرارة الناتجة عن إحساس الشاعر بعجزه عن الصبر، ونشعر بزفرات العشق وحرارة الوجد نابعة من أعماق قلب مقسم بين قسوة وداع الحبيب، ومرارة العجز عن تحمل فراقه فيعلن الدمع

حالت ضعف حاضرة لحبيبة غائبة، يقول ابن الحداد مخاطباً نويرة حب حياته والمرأة الوحيدة التي ذكرها في شعره وبذل دمه اسعطافاً لودها:

يا غائباً، حَطَرَاتِ الْقَلْبِ مَحْضُرُهُ	الصَّبْرُ بَعْدَكَ شَيْءٌ لَسْتُ أَقْدِرُهُ
تَرَكْتَ قَلْبِي وَأَشْوَاقِي تُفْطِرُهُ	وَدَمْعَ عَيْنِي وَأَحْدَاقِي تُحْدِرُهُ
لَوْ كُنْتُ تُبْصِرُ فِي تَدْمِيرِ حَالَتِنَا	أَذْنٌ لِأَشْفَقْتِ مِمَّا كُنْتُ تُبْصِرُهُ
فَالْعَيْنُ دُونَكَ لَا تَحْلِي بِلَدَّتْهَا	وَالدَّهْرُ بَعْدَكَ لَا يَصْفُو تَكْدُرُهُ
أَخْفِي أَشْتِيَاقِي وَمَا اطْوِيهِ مِنْ أَسْفٍ	عَلَى الْمَرِيَّةِ وَالْأَنْفَاسُ تُظْهِرُهُ (١٤)

أخذ الشاعر هنا من أسلوب النداء لمحبوته منفذاً للتعبير عن تلك المشاعر المؤلمة التي يمر بها، ويجسد بمناظرته لها صراعه النفسي بين الاستسلام للفراق والرغبة الملحة في اللقاء والوصل بإطار من الشكوى الممزوجة باستعطاف المحبوبة من خلال عرض حاله، وما آل إليه عيشه وقد حقق ذلك بتناوب استعماله للأفعال الماضية والمضارعة في تصويره لمعاناته مما كشف عن احتواء حالة الحزن له فتجاوزت أفعاله الدلالة النحوية إلى دلالة شعرية تمنح النص روح الاستمرارية على الرغم من الدلالة الماضية للأفعال التي تعني زوال الحدث مع مضي الزمن إذ ((ليس الزمان هو الصورة الوحيدة المرادة من الفعل، فإن الفعل قد يدل على محض تمام الحدث)) (١٥)

ومن الشعراء من وجد في ذرف الدموع راحتة النفسية، وتسكيناً لألمه فهي استجابة نوعية أو رد فعل أو أثراً من آثار صعوبة يواجهها الإنسان أو يتوقعها ولاسيما إذا كانت ذاتية، من هنا كان لجوء الشاعر ابن الحداد لذرف الدموع أملاً منه في تسكين الام هيجتها الذكرى، فيقول:

أَمَّا إِنَّهَا الْأَعْلَامُ مِنْ هَضْبَاتِهَا	فَكَيْفَ تَكْفِ الْعَيْنُ عَنْ عِبْرَاتِهَا؟
ذُرَانِي وَأَذْرَاءَ الدَّمُوعِ لَعَلَّهُ	يَسْكُنُ مَا قَدْ هَاجَ مِنْ ذِكْرَاتِهَا (١٦)

ثانياً الشكوى:

فتحت الشكوى الباب للشاعر للبكاء وسكب الدموع، فاليأس من وصل المحبوبة والخشية من استحالة الاجتماع دفعته إلى العيش بين أمل راحل وألم مقيم فغدا دمع له لسان شكواه، ومعينه في وصف ما يقاسيه بعد الجفوة والصدود عله يجد الأذن الصاغية، والقلب الودود بعدما عانى من ((توجع الكآبة، وقلق الأشواق ولوعة الفراق))^(١٧)، فيغدو دمعاً شاهداً على شدة وجده ودليلاً لوفائه، يقول ابن زيدون:

ألا ليت شعري هل أصادفُ خلوةً لديك فأشكو بعض ما أنا واجدٌ؟
رعى الله يوماً فيه أشكو صبابتي وأجفانُ عيني بالدموع شواهد^(١٨)

نلاحظ أن الشاعر عمد إلى أسلوب سهل وألفاظ رقيقة وتكرار واضح للفظ الشكوى ليحقق شدة التأثير وسرعة فبدأ بـ (ألا) الاستفتاحية مخرجاً إياها من دائرة الاستعمال اليومي المألوف إلى نطاق التعبير الشعري لتكون مع الدمع سبباً لإثراء تعبيره، وتسم نصه بالعفوية والمصادقية؛ كما أن توجع القلب يدفع الشاعر إلى الشكوى إلى المحبوب من دموعه جاعلاً من تبادل أطراف الصورة سبباً إلى شدة التأثير ودليلاً على معاناته إذ عوضاً عن تميز الدمع لدى الشاعر كونه وسيلة لإبراز لوعته إلى محبوبة والتقرب إليه وتحول إلى الشكوى من دموعه، يقول ابن الحداد:

مَنْ لي بأنْ أشكو إليك مدامِعاً تهمني عليك وأضلعاً بك تحترق؟
فَتَرَّقَ لي يا من غدا قلب اسمه مُتَّصِحِّفاً ماضِده ماضي يرق^(١٩)

ويلجأ الإنسان إلى الشكوى عندما يشعر بالظلم والحرمان، وقد سلطت عاطفة الحزن أسهماً في أجساد بعض الشعراء فأصابت أكبادهم، ووجهتهم نحو اعتماد نغم حزين ويأس من الحياة والصحة ليكون الدمع الرفيق الأقرب، يقول ابن مارتين*:

كيف لي بعدكم بطبيب الهجوع
كلُّ شيءٍ يئسْتُ منه إذا ما
وجفوني مملوءة بدموعي
بنتم غير عَبرتي وولوعي
ولَكم قد شكَّوتُ ممَّا الاقي
غير أني أشكو لغير سميع (٢٠)

يظهر النص أنه وعلى الرغم من غلبة الأسلوب الإنشائي فإن الشاعر كسر طوق جموده بتكراره وكسره للقافية فتكرار ألفاظ الحزن والشكوى لم يكن مجرد كشف عن الجانب النفسي الحزين للشاعر وسيلة لإعلان يأسه من أمور الحياة جميعها بعد فراق أحبته بل غدا ذا قيمة فنية في النص عندما وظف لتقوية المعنى، وتأكيد الشكوى وليكون أثره ابلغ في المتلقي وادعى إلى تحقيق الاستجابة فضلا عن حرف العين المكسور الذي أضفى على النص طابعاً مأساوياً.

والشكوى من ثم حاجة نفسية ملحة ارتبطت بالدموع يخفف الشاعر من خلالها حزنه، ويتقرب بدلالاتها إلى محبه عله يرفع الحيف عنه لذا كان لا بد من استحضاره لعلامات الهوى، فقد قيل ((: إن أول علامات الهوى على ذي الأدب نحول الجسم، وطول السقم، واصفرار اللون...)) (٢١) وقد أضاف المعتمد بن عباد دليلاً أشد تأثيراً تمثل في دموعه التي شبهها بالمطر الشديد حين وصفها بالهطول، والهطل هو دوام السيلان في سكون (٢٢)، وبهذا التعبير تُستكمل صورة الشكوى، وتظهر براعة الشاعر في توظيف دلالة اللفظ بقوله:

من شكَّ أني هائمٌ بك مغرماً فعلى هواك لهُ على دلائل
لونٌ كستته صفرةً، ومدامع هطلت سحائبها، وجسمٌ ناحل (٢٣)

أما ابن حمديس فقد أولع بإضفاء الطابع الإنساني على الدمع فجعله الناطق بشكواه بعد أن صمت اللسان، وبذلك حمله دور الإعلان متجاوزاً الدلالة العاطفية التي اقترن بها ليضطلع في نصه بمهمة اتصالية، بقوله:

الدمعُ ينطقُ واللسانُ صَموتُ فانظر إلى الحركات كيفَ تموتُ
ما زالَ يظهرُ كلُّ يومٍ بي ضنًى فلذاك عن عَيْنِ الحِمامِ خفيثُ

صَبُّ يَطَالِبُ فِي صَبَابَةِ نَفْسِهِ جَسَدًا بِمَدِيَةِ سَقْمِهِ مَنحُوتٌ (٢٤).

نجد أن الصورة على الرغم من تقريريتها، فإنها اندسجت بوضوحها مع حالته فالشاعر عاجز عن الحراك بل حتى ابسط الحركات تصعب عليه، فهذا اللسان الذي عادة لا ينفك يتكلم نجده في حالة العاشق صموتاً لذا أخذ الدمع مكانه للتعبير عن حالته، ليس هذا فحسب بل نجده يباليغ في وصف حالته، فعين الموت لا تراه لأنه في نحول مستمر، وهو يبحث عن نفسه المفقودة في عالم العشق، وعن جسده الذي نحتته مدية السقم والمرض، كل ذلك ينطق به دمعته ليرقق قلب محبوبه.

ثالثاً: الاستعطاف:

مثل الفراق تحدياً لم يقوَ الشاعر الأندلسي على مواجهته لرقّة إحساسه، ورهافة حسه، لذا كان الاستعطاف ملاذه من ألمه، وحاضراً في تعبيره عن تجارب حب جلبت له الشقاء، كما جعل الدمع شفيحاً لدى محبوبه، ودليلاً على صدق مشاعر حب، وعلاقة وفاء لم يحد عنها قلب الشاعر العاشق، ومن تلك النصوص التي وظف الشاعر فيها الدموع لترقيق فؤاد حبيب جفاه وروعه بتقلب حاله قول ابن حمديس:

بك يا صبورَ القلبِ هامَ جَزْوَعُهُ أوكَلُ شَيْءٍ مِنْ هَوَاكَ يَرُوعُهُ
 فإذا وصلتْ خَشِيْتُ مِنْكَ قَطِيْعَةً فالعِيشُ أَنْتَ وَصَوْلُهُ وَقَطْوَعُهُ
 لا تَتَّهَمَنِي فِي الْوَفَاءِ فَإِنِّي كَتَمْتُ سِرْكَ وَالِدَمُوعُ تَذِيْعُهُ
 نقل الهوى قلبي إلى عيني التي منها تَفَجَّرَ بِالْبِكَاءِ يَنْبُوعُهُ
 أبكيتني فأذعتُ سِرْكَ مَكْرَهَا فَعَلَامُ تَعَذَّلَنِي وَأَنْتَ تَذِيْعُهُ (٢٥)

نلاحظ أن البعد الجمالي للنص تحقق في لفظة (أنت) وحالة العشق، التي مثلها دمع الشاعر وبكائه، الذي جعله معادلاً موضوعياً عنه، فإذا كانت عيونُه ينبوعاً تفجر بالبكاء فلم يكن ذلك إلا ليستعطف بها محبوبه بعتاب ولوعة مستعيناً بالتكرار وما يؤديه من وظيفة إيصاله للمعنى واستثارته للمتلقى، إذ أن

((التكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة)) (٢٦).
كما أن حاجة الشاعر للاستعطف إنما تغدو حاجة ملحة تزداد بازدياد اضطرابه النفسي الناجم من شعوره بالضعف فانبرى في تصوير مشاعره، ووصف حاله مستعظفاً بالبكاء مستثيراً متلقيه بصيغة الاستفهام المجازي وما يضيفه على النص من روح التواصل، يقول ابن الحداد:

فكم أبكي عليك دماً ولا تثرين للباكي!
فهل تدرين ما تقضي على عيني عيناك (٢٧)

والشاعر المبدع هو من يشركنا في مشاعره وأفكاره بعد صياغتها فنياً ومن ثم يجعلنا نشاطره إحساسه ومدركاته، ونمنحه تعاطفنا وهو يحاور ليعرض معاناته لجفاء المحبوب، يقول ابن زيدون:

أجفى بلا جرم، وأقصى بلا ذنب سوى أنني محض الهوى صادق الحب؟
أغاديك بالشكوى، فأضحى على القلى وأرجوك للعتبي فأظفر بالعتب
فديتك، ما للماء عذباً على الصدى وإن سمتني خسفاً، محلّك من قلبي
ولولاك ما ضاقت حشاي صبابه جعلت قرأها الدمع سكباً على سكب (٢٨)

نلاحظ أن الشاعر أفاد من صيغة الاستفهام لإقرار حقيقة مشاعره، وإيصالها إلى الآخر فتسألُه هنا سواء أكان موجهاً إلى الغير أم إلى الذات فهو لم يكن إلا مفتاحاً لكوامن نفسه التي ترجو وتستعطف وقد بدأ الشاعر بالإفصاح عنها شيئاً فشيئاً حتى وصل ذروته حين جعل من دمه قرى لصبابته، وبذلك يبلغ الاستعطف ذروته في تشبيهه لم نجده عند غيره.

وتفرض حالة الاستعطف ولا سيما استعطف المحب لمحبيه ترفيق القول، وإعلان الذل وبذل الحجة، وهذا ما وظفه ابن اللبانة في قوله:

سنانُ وردِ جماله في خده غضّ و نرجسُ مقلتيه ذابلُ

كرمت عليه لواحظي بدموعها ذلماً وهو العزيزُ الباخلُ
وكأنما هي في السماحةِ طيء وكأنما هو في السماحةِ وابلٌ (٢٩)

وظف الشاعر في نصه الصورة التشبيهية هنا وظفت لإبراز القيمة التأثيرية للدمع، فالتشبيه يجمع بين ((صفات ثلاثة هي: المبالغة، والبيان، والإيجاز)) (٣٠) وذلك من خلال تقريبه بين البعيدين حتى تصير بينهما مناسبة مشتركة، وهي هنا تمثلت بجزارة دموعه وبيانها عن حالته، وإيجازه لمراده. ومن سبيل الاستعطاف التي أتخذها الشاعر فضلاً عن ترقيق القول وإظهار التوجع كان تأكيده ترخيص دمعـه الغالي الذي قدم وصفه باللؤلؤ والعلق، وتلك بلا شك التفاتة لطيفة إذ أن رقة الشاعر الأندلسي، وولعه بمن أحب لا يعني ابتذال دمعـه، ولكن الدموع الغالية هي خير ما تستعطف بها الحبيبة، يقول ابن خفاجة:

هْنَيْدٍ أَوْجَعَتْ قَلْبًا قَدْ أَقَمْتِ بِهِ مَا بَالُ طَرْفِي، وَمَا يَدْرِيكَ، يَبْكِيكَ*
فُرْبٌ لَوْلَوْ دَمْعُكَ كُنْتُ أَنْخَرُهُ عِلْقًا أَعَالِي بِهِ، أَرْخَصْتَهُ فَيْكَ (٣٢)

وقد تدفع هيمنت روح الحزن بالشاعر إلى مناداة باعث ألمه، ليكشف عن قلب مثقل بشوق جعل من جزارة الدمع وحرارته وصدق انبعائه سبيلاً إلى تمني الرضى والفوز بالمراد، إذ وجد الشاعر في هذا الحوار تنفيساً وتعبيراً عن حالته النفسية وسبيلاً لإيصال إحساسه إلى المتلقي عليه يفوز باستعطافه، يقول المعتمد ابن عباد:

أَغَانِبَةُ الشَّخْصِ عَنْ نَاطِرِي وَحَاضِرَةٌ فِي صَمِيمِ الْفَوَادِ
عَلَيْكَ سَلَامٌ بِقَدْرِ الشَّجُونِ وَدَمْعِ الشُّوْنِ وَقَدْرِ السُّهَادِ
تَمَلَكْتَ مِنِّي صَعَبَ الْمَرَامِ وَصَادَقْتُ وَدَى سَهْلِ الْقِيَادِ
مُرَادِي لُقْيَاكَ فِي كُلِّ حِينٍ فَيَا لَيْتَ أَنِّي أُعْطِيَ مُرَادِي (٣٣)

وبذلك فلم يكن حديث الشاعر المشوب بالدموع مجرد أبيات تسرد في شعره، لكنها رقة تتجسد في صورة وابداع جعل من هذا الحديث نتاجاً فنياً ولغوياً تفرد به على الرغم مما حمله من تصوير للألم الذي يعانیه الشاعر المحب فتوظيف البناء اللغوي والصورة الشعرية فضلاً عن موسيقى الشعر أبرز ابداع الشاعر الاندلسي في اظهار شخصيته مما أنتج شعراً يأسر القلب والوجدان.

وختاماً لما تقدم نستطيع القول:

- إن الشاعر تمكن من إخراج التجربة العاطفية الضيقة الى هذا المستوى الفني والعلاقات الجمالية بين الصور على الرغم من الطابع الحزين لها، يعينه على ذلك سيطرة الأحداث على وجدانه، وثراء عالمه الداخلي، وسعة خياله، ورفقة مشاعره.
- لأن الدموع أصدق وسيلة للتعبير فقد اتسقت مع الألفاظ العذبة الرقيقة المناسبة للبواعث التي جسدها.
- اظهر البحث بوضوح شيوع الكسر للقافية دلالة على انكسار روح الشاعر، وإظهاراً لحالة الضعف التي تعتريه قبل وفي أثناء، وبعد فراق أحبته.
- برز توظيف اللون، وعدم إغفال أثر الطبيعة الأندلسية التي استحضرها الشاعر في تصوير دموعه، فكانت الأمطار والرياح والبرق فضلاً عن الخضرة والورد حاضرة بحسب ما يتناسب ومقتضى الحال للتعبير عن هواجس الشاعر وآلامه.
- من الشعراء من تميز بتشخيصه للدمع ليكون حاضراً وشفيعاً له لدى المحبوب.
- ولا يخفى على القارئ أمر سهولة و عذوبة الألفاظ التي استعملها الشاعر الأندلسي فهو فضلاً عن تأثره بالطبيعة الأندلسية والاجتماعية المتميزة بالرفقة والعاطفة الجياشة كان يعبر عن أرق موضوع ممكن أن يدغدغ مشاعر الإنسان في أي مكان وزمان ألا وهو الحب والعشق، وما ينتج عنه من ترقيق مشاعر أقوى الأقوياء فكيف إذا كان ذلك الإنسان هو أندلسي أولاً

وشاعر ثانيا لا بد أن تكون النتيجة رقة وسلاسة تدخل قلب المتلقي من دون ابتذال أو إسراف في إيصال مشاعره إلى الطرف الآخر عبر السنين الطوال سواء أكان ذلك الطرف الحبيبة المعنية بتلك الأشعار أم المتلقي القارئ المتذوق للإشعار الجميلة المشاعر الصادقة الإحساس.

- إن الشاعر الأندلسي وإن كانت دموعه واحدة عند بعد حبيبته عنه إلا أنها اتخذت اشكالا وصوراً فتارة تأخذ هذه الدموع مسار الشكوى وتارة أخرى للاستعطف هذا فضلاً عن تدفقها لحظة وداع الحبيبة دلالة على انهيار كل القوى التي يمتلكها الرجل عادة أمام إحساسه بفقدان العاطفة والحنان التي تمتلكها المرأة (الحبيبة) تحديداً.

الهوامش :

- (١) ينظر: المرأة في الشعر الجاهلي: ١١٦
- (٢) ينظر: الحب في الأندلس: ٢٩٣
- (٣) ينظر: بواعث البكاء: ١٣.
- (٤) الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه: ٤٤، وينظر: تاريخ الأدب عصر الطوائف والمرابطين: ٤٧
- (٥) طوق الحمامة في الألفه والآلاف: ٨٧.
- (٦) ينظر: مدامع العشاق: ١٤.
- (٧) ديوان ابن حمديس: ٢٨٥.
- (٨) مدخل الى بنية اللغة الشعرية: ٤٣.
- (٩) ديوان المعتمد بن عباد: ٤، وينظر: ديوان ابن خفاجة: ٣٨٦.
- (١٠) ديوان ابن خفاجة: ٣٧٥، ينظر: ديوان ابن حمديس: ١٩٠.
- (١١) ديوان ابن زيدون: ٩.
- (١٢) ينظر: التحليل النفسي للذات العربية، أنماطها السلوكية والأسطورية: ٨٨.
- (١٣) شعر ابن السيد البطليوسي: ٤٩-٥٠، *أم تري: أستنزل، غرب مقلة: دمع مؤخرة العين، الوخذ: السير السريع، فتغربا: أي تتورم من كثرة البكاء.
- (١٤) ديوان ابن الحداد: ٢٠٩.
- (١٥) الدلالة الزمنية في الجملة العربية: ٤٦.
- (١٦) ينظر: أسس علم النفس العام: ١٤٥.
- (١٧) ديوان ابن الحداد: ١٦٢، وينظر: ديوان ابن حمديس: ٢٩٣-٢٩٥.
- (١٨) زهر الأداب وثمر الالباب، ج ١/ ص ١٠١.

- (١٩) ديوان ابن زيدون: ٤٦.
 (٢٠) ديوان ابن الحداد: ٢٣٩، وينظر: ديوان المعتمد بن عباد: ٨.
 (٢١) المغرب في حلى المغرب: ج ١/ص ٢٤٨، * هو أبو بكر محمد بن مرتين أحد قواد المعتمد بن عباد وقد استوزره الظافر بن المعتمد أثناء ولايته على قرطبة.
 (٢٢) الطرف والظرفاء: ٣٨، وينظر الحب عند العرب: ٢٤.
 (٢٣) ينظر: الفروق في اللغة: ٣٠٨.
 (٢٤) ديوان المعتمد بن عباد: ٢٣، وينظر: ديوان ابن الحداد: ٢٢٢.
 (٢٥) ديوان ابن حمديس: ٩٣.
 (٢٦) ديوان ابن حمديس: ٢٩٢.
 (٢٧) قضايا الشعر المعاصر: ٢٧٦.
 (٢٨) ديوان ابن الحداد: ٢٤١.
 (٢٩) ديوان ابن زيدون: ٥٨.
 (٣٠) ديوان ابن اللبابة: ١١٣.
 (٣١) المثل السائر، ج ١/ص ١٢٣.
 (٣٢) ديوان ابن خفاجة: ٣٧٥، *هنيذ: تصغير هند، والعلق: النفيس من كل شيء.
 (٣٣) ديوان المعتمد بن عباد: ٨.

المصادر والمراجع

١. أسس علم النفس العام، د. أنور الشرقاوي، د. طلعت منصور، د. فاروق أبو عوف، د. عادل عز الدين، مكتبة الانجلو-القاهرة-الطبعة الأولى ١٩٧٨م.
٢. بواعث البكاء ودلالاته الفنية والموضوعية في الشعر العربي قبل الإسلام، سمير جعفر الدوري-رسالة ماجستير-كلية الآداب-جامعة بغداد ١٩٩٨م.
٣. تاريخ الادب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين، د. احسان عباس، دار الثقافة-بيروت – الطبعة الاولى ١٩٩٧م
٤. التحليل النفسي للذات العربية أنماطها السلوكية والأسطورية، د. علي زيغور، دار الطليعة-بيروت-الطبعة الأولى ١٩٧٧م.
٥. الحب عند العرب دراسة أدبية تاريخية، إعداد المكتب العلمي للبحوث – منشورات مكتبة الحياة-بيروت(د.ت).
٦. الحب في الأندلس ظاهرة اجتماعية بجذور مشرقية، جودت مدلج، دار لسان العرب-بيروت-الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

٧. الدلالة الزمنية في الجملة العربية، د. علي جابر المنصوري، مطبعة الجامعة – بغداد- الطبعة الأولى ١٩٨٤م.
٨. ديوان ابن الحداد الأندلسي (ت ٤٨٠هـ)، جمعه، وحققه وشرحه وقدم له، الدكتور يوسف الطويل، دار الكتب العلمية-بيروت-(د.ت).
٩. ديوان ابن حمديس، تعليق، د. يوسف عيد، دار الفكر العربي-بيروت- الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.
١٠. ديوان ابن خفاجة، شرح، دكتور يوسف شكري فرحات، دار الجيل – بيروت-(د.ت).
١١. ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق، كرم البستاني-دار صادر-بيروت – الطبعة الثالثة ٢٠٠٣م.
١٢. ديوان ابن اللبانة الداني، جمع وتحقيق، د. محمد مجيد السعيد، دار الراجعية للنشر والتوزيع عمان-الطبعة الثانية ٢٠٠٨م.
١٣. ديوان المعتمد بن عباد، جمعه وحققه، د. حامد عبد المجيد، د. احمد احمد بدوي، راجعه، د. طه حسين، الطبعة الرابعة، مطبعة دار الكتب والوثائق –القاهرة-٢٠٠٢م.
١٤. زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق الحصري، تحقيق، علي محمد الباوي-مطبعة عيسى البابي الحلبي-القاهرة ١٩٥٣م.
١٥. شعر ابن السيد البطليوسي، جمع وتوثيق ودراسة، د. رجب عبد الجواد إبراهيم، مكتبة الآداب – القاهرة-الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.
١٦. الشعر الأندلسي (بحث في تطوره وخصائصه) أميليو غرسية غومس، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية(د.ت)
١٧. طوق الحمامة في الألفة والألاف، الإمام أبي محمد علي بن احمد بن سعيد ابن حزم (ت ٤٥٦هـ)، ضبطه ووضع حواشيه وقدم له، احمد شمس الدين دار الكتب العلمية-بيروت-الطبعة الخامسة ٢٠٠٨م.
١٨. الظرف والظرفاء، أبو الطيب محمد إسحاق بن يحيى الوشاء (ت ٣٢٥هـ) عالم الكتب-بيروت-الطبعة الأولى-١٩٧٧م.
١٩. الفروق في اللغة، أبي هلال العسكري، منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٧٣م.

٢٠. قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، الطبعة السادسة، دار العلم للملايين – بيروت- ١٩٨١
٢١. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، قدمه وحققه وعلق عليه، د. احمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر- ومطبعتها-القاهرة(د.ت).
٢٢. مدامع العشاق، زكي مبارك، منشورات المكتبة المصرية، الطبعة الثانية ١٣٥٣هـ.
٢٣. المرأة في الشعر الجاهلي، د. علي هاشم، مطبعة المعارف-بغداد ١٩٦٠م.
٢٤. المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الأندلسي، حققه وعلق عليه، د. شوقي ضيف-دار المعارف-القاهرة-الطبعة الرابعة ١٩٩٣م.
٢٥. مدخل إلى بنية اللغة الشعرية، د. علوي الهاشمي، مجلة البيان الكويتية، ع (٨٤) سنة ١٩٨٩.

The speech of love and tears in Andalusia poetry (sect age)

Assis.prof.phd. Bushra Abd Atya

College of agriculture

Baghdad University

(Abstract)

The research study concerns the tears in the poetry of love in Andalusia has been prying analysis of poetic texts which employed the poet of the word tears and on its behalf of crying and sadness.

Been searching employing these words in the pictures of poetry that depended on tears to express their sense of the poet lover and his emotional and stand on styles of expression that emerged in this subject and the research found the most important of the results of several

- Creativity of the poet in employing these words in the love poetry to express his sincere and sense delicate rather than parting loved and complaint abandoned and than beg the beloved
- Emerged as styles expression adopted by the poet to express his psychological state the most important is question and repetition and dialogue and diagnosis of tears
- appearance rhyme broken in that notice which expressed the loving tears of the poe.